

أندرس ستريندبرغ*

عدو عدوي**

أهم المتاريس التي حالت على امتداد الأعوام العديدة الماضية دون انتشار الإسلاموية السلفية الشبيهة بالقاعدة في لبنان وفلسطين هي حزب الله و"حماس"، على التوالي. ومع أن هذا الواقع قد لا يتسق تماماً مع القسمة الثنائية الحادة التي يتسم بها منظور الخلفية الفكرية للحرب [العالمية] على الإرهاب، فإن الحقيقة هي أن هاتين الحركتين أظهرتا نجاحاً في الحد من تأثير السلفية داخل ولايتيهما الخاصتين أكبر جداً من نجاح حلفاء الولايات المتحدة الإقليميين. وعلى الرغم من ذلك، ومع استمرار القتال لتحويل لبنان وقطاع غزة إلى أنقاض، فإن الولايات المتحدة ما زالت تتبنى سياسة الحكومة الإسرائيلية القائلة بأن أي حل سياسي يجب أن يتضمن القضاء عسكرياً على حزب الله و"حماس". وبالتالي، فإن كلتا الحركتين تجد نفسها الهدف الرئيسي للحرب على الإرهاب. ونظراً إلى استعداد حزب الله و"حماس"، وقدرتهما على كبح المد السلفي النضالي المتصاعد، فإن استهدافهما إنما يعني أن الحرب على الإرهاب تهدد بتمكين القاعدة ورفاق دربها من التسلل والتحصن في بلاد كانت محظورة عليها وعليهم. ويبدو أن أولويات الإدارة الأميركية لا تخطئ الهدف في الحرب على الإرهاب فحسب، بل تشكل خطأً استراتيجياً خطراً أيضاً. إن العداوة بين حزب الله و"حماس" من جهة، وبين التيار السلفي من جهة أخرى، ترجع في جزء منها إلى اعتبارات السياسة العملية. فقد أدركت هاتان الحركتان أن بروز امتدادات للقاعدة في أي من أراضيها سيستعمل ذريعة لأعمال أميركية وإسرائيلية أشد قسوة ضدهما وضد قواعدهما الشعبية. والواقع أن الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية أشاعت تكراراً "معلومات" تربط "حماس" بالقاعدة، وذلك توخياً لترسيخ قتال إسرائيل لأعدائها ترسيخاً أوطد في صلب الحرب التي تقودها الولايات المتحدة على الإرهاب.

علاوة على ذلك، فإن حزب الله و"حماس" حركتان سياسيتان وطيدتا القواعد ولا تريدان، بكل بساطة، أن تتقاسما هذه القواعد مع سواهما من الجماعات الإسلامية ذات التلاوين الأيديولوجية المختلفة. ومع ذلك فإن لطبيعة هذا الاختلاف الأيديولوجي أهمية جوهرية في فهم عداوتهما للمشروع السلفي. فعلى الرغم من أن حزب الله و"حماس" والقاعدة والتنظيمات المنضمة إليها منخرطة كلها فيما تعتبره مشروعاً مقاوماً، فهي غير منخرطة كلها في المشروع المقاوم نفسه. فلنضالات الحركتين الأوليين أهداف إقليمية (territorial)، تتوجه نحو عدو محدد هو إسرائيل، وتتجذر في حاجات شعبين محددين وفي طموحاتهما. وتهدف هاتان الحركتان، من خلال مؤسسات عصرية، إلى تأهيل قواعدهما وتخضعان كليهما مباشرة لمحاسبة هذه القواعد في انتخابات ديمقراطية، فضلاً عن التأييد الأعم لأعمالهما. ومن الأهمية بمكان، أيضاً، أنهما تشكلان جزءاً من طيف أيديولوجي وعقدي متعدد داخل ساحتيهما الخاصتين، وتتعاونان مع مكوناته. ومع أن هذا لا يتواءم تماماً مع الخطاب السياسي الأميركي الرسمي، فإن حزب الله و"حماس" لا يعاديان الولايات المتحدة إلاً عبر التوسيع الاستدلالي لعداوتهما حيال إسرائيل. وفي تضاد صارخ، يتجذر صراع القاعدة في الفكر الديني الوهابي، والمواريث القبلية للعربية السعودية، والتجارب العسكرية في أفغانستان والبلقان والصومال. وهي تخوض حرباً كونية ضد القيم الغربية "الدنسة"، ولا تعتبر نفسها مسؤولة أمام أية قاعدة جماهيرية مهما تكن، لأنها لا تقيد صراعها بأي إقليم أو بلد مخصوص. وهي تسعى لخلق بدائل من المؤسسات الحديثة "المستوردة" من الغرب. كما أنها ترفض، إلاً لاعتبارات تكتيكية، التعددية السياسية والدينية لأنها تعتبر كل من ليس في الدائرة السلفية كافراً أو مرتدّاً. ومن المهم أن نفهم أنها تعتبر حزب الله نفسه وحركة "حماس" من المرتدين: الأول لأنه شيعي المذهب، والثانية لأنها تتعاون مع حزب الله ومختلف الفصائل والحركات الفلسطينية غير الدينية. القاعدة عدو لدود مباشر للولايات المتحدة، وهي لا تبدي كبير اهتمام بالمواجهة مع إسرائيل. "ولاً لكان أولاد الحرام قد ساقوا تلك الطائرات [يوم 11 أيلول/سبتمبر] إلى بنايات في إسرائيل بدلاً من نيويورك وواشنطن"، على حد قول مسؤول رسمي فلسطيني. كما أن حزب الله، الذي يمتلك جهاز استخبارات فعالاً، لم يزل يرصد بدقة الحركات السلفية منذ أعوام. وقد استخدم، بطريقة خفية في معظم الوقت، مزيجاً من الجزر والعصي لكبح انتشار الأيديولوجيا الجديدة في صفوف قواعده. وقد بلغ ذلك أحياناً حد توجيه ضربات إليها. فعلى سبيل المثال، قدم حزب الله دعماً استخباراتياً لعملية سورية - لبنانية ناجحة لمكافحة الإرهاب، في إثر انتفاضة قام بها بعض التنظيمات المرتبطة بالقاعدة في مدينة طرابلس الساحلية الشمالية في أواخر سنة 2001.

وفي مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الجنوب اللبناني، حيث ثمة قابلية لانتشار النفوذ السلفي جراء ما يعانيه أهلها من بؤس وفقر، لم تزل "حماس" تتعاون مع الجماعات الفلسطينية غير الدينية لصد ذلك المد. وقد اندلع العنف هناك مراراً جراء التوتر. أما في الأراضي الفلسطينية فقد عملت "حماس" على مقاومة التسلل باستيعاب المظالم الاجتماعية، التي تشكل الأرض الخصبة لنمو الأفكار السلفية، في جدول أعمالها الخاص، مقلصة بذلك الحاجة إلى حركة أكثر راديكالية. وقد أبدت "حماس" رفضاً صلباً صلابه الصخر للمطالبات المتكررة بـ "التعاون ضد الأعداء المشتركين". حتى إن أحد الناطقين باسم "حماس" صرح ذات مرة: "ليس لدينا أعداء مشتركين ما داموا يخوضون صراعاً عالمياً ونخوض نزاعاً محلياً". ولو قيض للولايات المتحدة وإسرائيل أن تحققا هدف استئصال حزب الله و"حماس" - وهو هدف يكاد يكون من قبيل الأحلام - فلن يكون في لبنان أو في الأراضي الفلسطينية أي عنصر "مقبول" وقادر على مقاومة التمدد السلفي بالدرجة نفسها من الفاعلية. فمن دون حزب الله والدعم السوري سيكون الجيش اللبناني عديم الجدوى تماماً في مواجهة الإرهاب، كما أن ليس من شأن انبعاث سلطة فلسطينية "معتدلة" أن تكون أكثر فاعلية في مكافحة السلفيين من فعاليتها في كبح شعبية "حماس" المتصاعدة. وبينما يجد حزب الله و"حماس" أنفسهما تحت الحصار الإسرائيلي بموافقة الولايات المتحدة، تحذر مصادر الاستخبارات العربية والإسرائيلية من أن السلفيين شرعوا في التحرك لملء الفراغ المحتمل.

وبالتالي، فإن محاربة حزب الله و"حماس" هي بمثابة دعوة مفتوحة إلى السلفيين لدخول لبنان وفلسطين، ولا تخدم أية مصلحة أميركية في الحرب على القاعدة - التي يفترض فيها أن تكون عماد الحرب على الإرهاب. إن المقاربة الفجة والخطرة التي تعتمدها الإدارة الأميركية لسياستها في الشرق الأوسط تبدو كأنها ناتجة كلياً من النظرة اليوتوبية عند المحافظين الجدد، ومدفوعة بسياسة الانتقام.

عندما وضعت الولايات المتحدة قوات عسكرية تابعة لها في لبنان في أوائل الثمانينيات، سدد إليها تكتل الخلايا الوليدة، التي اتحدت لاحقاً لتشكيل حزب الله، ضربة قوية فتاكة. ففي هجومين على السفارة الأميركية ومعسكر قوات المارينز البحرية في بيروت قتل أكثر من ثلاثمئة جندي أميركي. ومهما كانت قسوة وقع هذين الهجومين، فمن المهم أن ندرك أن حزب الله اليوم لا يشبه بأية حال من الأحوال - لا سياسياً، ولا تنظيمياً، ولا عملياً - تلك الخلايا التي نفذت الهجومين. فقد كان تركيز حزب الله خلال العقدين الماضيين على النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي. ومنذ انسحاب إسرائيل من الجنوب اللبناني في أيار/مايو 2000 (ومع أن استمرار احتلال مزارع شبعا ما زال مصدراً مستمراً للتوتر) فإن سبب وجود حزب الله كان، ولم يزل، الانتهاكات الإسرائيلية شبه اليومية للأراضي اللبنانية.

لم يظهر أي دليل، على امتداد الأعوام العشرين الماضية، على أن حزب الله فكر في مهاجمة أهداف أميركية، أكان ذلك في الولايات المتحدة أم في الخارج. وقد أقر المسؤولون الرسميون عن تنفيذ القانون الفدرالي بأن ما من دليل، على الرغم من الجهود الاستقصائية المكثفة، على أن حزب الله قد سعى لإقامة "خلايا عسكرية هاجعة" في الولايات المتحدة. وقد صرح حزب الله نفسه تكراراً أنه غير مهتم بمهاجمة الولايات المتحدة، كما أنه شارك مؤخراً في مساعٍ للحوار توسط فيها مسؤولون في وزارة الخارجية والاستخبارات البريطانية. إن انعدام الدافع، مقروناً بانعدام الدليل، يجعل من الصعب على المرء أن يصدق الروايات التي تتحدث عن "شبكة حزب الله الإرهابية الدولية الواسعة"، أو "فريق النخبة عند الإرهابيين"، على حد وصف نائب وزير الخارجية الأميركي السابق، ريتشارد أرميتاج.

والأمر نفسه يصح على "حماس"، التي لم تزل تحصر نضالها ضمن الأراضي الفلسطينية وإسرائيل، ولم يكتشف يوماً أنها خططت أو أعدت لأي من الهجمات خارج ميدان صراعها المحلي. و"حماس"، التي انتخبت بأكثرية ساحقة في كانون الثاني/يناير 2006 لتأليف حكومة فلسطينية جديدة، قد هزمت حكومة مصابة بالفساد وعدم الكفاءة المزمنين، ولا تملك من مؤهلات لشغل المنصب سوى "اعتدالها" واستعدادها للتفاوض مع إسرائيل. أما حكومة "حماس"، فهي، على النقيض من ذلك، ترفض الاعتراف بوجود إسرائيل ما دامت إسرائيل ترفض إنهاء احتلالها للضفة الغربية، والإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين، والموافقة على حل عادل لقضية اللاجئين الفلسطينيين المستمرة منذ ستة عقود. وقد أغضب هذا الموقف إسرائيل والولايات المتحدة إلى حد أنهما اعتبرت الحكومة الجديدة المنتخبة ديمقراطياً - واحدة من الحكومات الثلاث المنتخبة في الشرق الأوسط العربي بأسره - عقبة في وجه السلام لا بد من إزالتها.

وحدها المطابقة التامة بين السياسة الإسرائيلية والمصالح القومية للولايات المتحدة يمكن أن تبرر الأولوية التي توليها الإدارة الأميركية لمحاربة حزب الله و"حماس" وتهميشهما. غير أن معلقين إسرائيليين لاحظوا مؤخراً أن نظرة المحافظين الجدد الذرائعية، كما يبدو، إلى إسرائيل لا تقدم أي فائدة لها. من ذلك ما كتبه دانييل ليفي في صحيفة "هآرتس" اليومية عن " التماثل شبه التام بين السياستين الإسرائيلية والأميركية"، مقترحاً "إخراج المصالح الإسرائيلية من بين أنقاض (الدمار الخلاق) الذي يدعو إليه المحافظون الجدد في الشرق، والذي بات يشكل تحدياً ملحاً لصانعي القرار الإسرائيليين. ذلك بأن من شأن أميركا، التي تسعى لإعادة تشكيل المنطقة عبر خليط غير مدروس من القنابل وصناديق الاقتراع، وخال من أي فهم للأوضاع المحلية في أطرها الخاصة، ومن أي تشكيل للتحالفات، أو تصحيح للظلامات، أن تعرض نفسها وإسرائيل للخطر." إن التناقض الظاهري (paradox) في الحرب على الإرهاب تجلى بأوضح صوره خلال المعارك التي دارت في لبنان وقطاع غزة. فالولايات المتحدة إذ تركز جهودها على حزب الله و"حماس"، إنما تستنزف رأس مالها السياسي التي هي في أمس حاجة إليه في الحرب ضد الأعداء الحقيقيين في أماكن أخرى في المنطقة والعالم. إن العرب والمسلمين يعرفون أن حزب الله و"حماس" ليسا من أعداء الولايات المتحدة، ولذلك فإن رفعهما إلى مرتبة الأهداف ذات الأولوية القصوى في الحرب الأميركية على الإرهاب لا يساعد في تخفيف الإدانة الإقليمية للحرب على الإرهاب.

علاوة على ذلك، فإن تعقب حزب الله و"حماس" عسكرياً، إذا كان القصد منه تحقيق تقدم عملائي في الحرب على القاعدة، إنما هو خطأ مؤكد. فالنضالات المحددة لهاتين الحركتين لم تبدأ معهما، وإنما هي موروثه من أجيال سابقة من المقاتلين الوطنيين واليساريين. إن القضاء على حزب الله و"حماس"، أو إضعافهما، من دون معالجة المظالم الكامنة في المنطقة - الاحتلال، والمعتقلين، واللاجئين - سيؤدي إلى تمرير الراية إلى الجيل التالي من المقاتلين: السلفيين المرتبطين بالقاعدة، المنتظرين حالياً في أماكن في الظل. وإذا ما قيص للسلفيين أن ينتشروا في لبنان وفلسطين، فسيكونون على حدود إسرائيل، ويصبحون مشاركين مباشرين في الصراع العربي - الإسرائيلي للمرة الأولى. وبالنظر إلى دور الولايات المتحدة كحامية أولى لإسرائيل، فسوف تكسب القاعدة وحلفاؤها بذلك منفذاً إلى الذخيرة السياسية الأم التي من شأنها أن تفيدهم في صراعهم العالمي. ■

(*) أكاديمي وصحافي مختص بشؤون الشرق الأوسط السياسية.

(**) المصدر: The American Conservative, September 11, 2006.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx